موريتانيا
عبد الرحيم قاسو

فترة ما بعد الحرب وإعادة الإعمار

مرّة أخرى، ساهم الإبداع — وهو ربّما اسم آخر لروح المكان — في إقامة محترف معماريّ فوق مطابخ دار الباي، سُمّي "البرشوار" أو المربض، وقد خُصّص لمتابعة عمليّة إعادة الإعمار. ضمّ المحترف أسماء مستقبليّة كبيرة في هذا المجال ستلعب، باعتمادها مقاربة مختلفة، دورًا بارزًا في إعادة إحياء أسلوب تمّ التخلّي عنه في مرحلة ما. في ذلك الوقت، مثّل الأرابسنس، الطراز الغربيّ المعرّب، جوهر عمارة إعادة الإعمار، ومختبرًا تجري فيه محاولات استثمار مبادئ العمارة الشعبيّة التقليديّة.

في ضوء هذه الخطوة، تمّ استكشاف أنظمة البناء في منطقة الساحل التونسيّ كطرق البناء التقليدية، من أسقُف العقد الكتلانيّ، إلى المشرّبيّات بألواح الطوب المتناوبة وشكل إجماليّ بسيط. تصبّ هذه التدابير كلّها في محاولة تجنّب الاستخدام المفرط للإسمنت والحديد نظرًا إلى شحّهما في ذلك الوقت.

لم تدم تجربة محترف «البرشوار» أكثر من بضع سنوات، بعد أن بشّرت بحلول الحداثة على النمط العالميّ وفي خدمة دولة جديدة مستقلّة. فتصدّر المشهد معماريّون تونسيّون واصلوا عمليّة التفكر والتحليل التي أطلقها سلفهم، في ما يتعلّق بدمج الفنون التزيينيّة المحلّية وإعادة صياغة الأشكال التقليدية. لكنّ متابعة هذه الأبحاث بشكل مختلف في سياق المشاريع الخاصّة والمباني العامّة أسفرت عن نتائج مختلطة. وأكثر من أيّ وقت مضى، صارت مسألة الإبقاء على الطراز المعرّب وتطبيقاته في صميم المناقشات بين المعماريّين، حيث حصدَ هذا الطراز نجاحاً جعل الكثيرين يعتقدون أنّ تلك العمارة الفرنسية-العربية المركّبة هي عمارة عربية-إسلامية تقليدية.

مرحلة ما بعد الاستقلال

لم يستقطب الطراز العالميّ إلّا عددًا قليلًا نسبيًّا من المؤيّدين. وعلى الرغم من الترحيب بالعمارة الحديثة في مرحلة ما بعد الاستقلال باعتبارها ناقلاً للتوجّه الذي تبنّته حكومة "تونس الجديدة"، فقد خضعت لتساؤلات وتعديلات عديدة في خضمّ الحوار المستمرّ مع التقاليد والحرفيّة المحلّية. لسوء الحظّ، لم تعش هذه المرحلة من الحوار المثمر إلّا عقدًا واحدًا، ثمّ ما لبثت أن أفسحت المجال أمام نهج أقلّ تناغمًا قوامُه عمليّاتُ تجديدٍ وترميمٍ هائلة طالت المراكز التاريخية والتنظيم المدينيّ الرسمي الذي كُرّس لتمجيد السلطة المطلقة. لم يذهب التساؤل المستمرّ حول مصير المراكز التاريخيّة سدًى، فقد أدّى في العام ١٩٦٧ إلى قيام "جمعية حماية المدينة" في تونس (ASM) وتجاوزَ نطاقُ نشاطها حدود المدينة التاريخيّة إلى المدينة الجديدة التي تحوّلت إلى مسرح لعمليات التأهيل الحديث لأحياء من القرنين التاسع عشر والعشرين.

في موازاة ذلك، تم استيراد العمارة الغربيّة واستخدام المخزون المحلّي على نحو سطحي لا أكثر، ما سهّل "تونسة" الإنجازات من دون الاحتكام إلى أيّ تفكير معمّق حول المطابقة بين هذا النمط الهجين وتقنيات البناء المتّبعة، بعكس المحاولات الناجحة التي سبقت. في هذا الإطار، ذكّر المعماريّ برنار هويت بالمصلحة التي يمكن بلوغها بإعادة اكتشاف العمل الذي أطلقه محترف "البرشوار". ومما قاله هويت: "في خضمّ الاضطرابات الجامحة التي تشهدها أساليب ما قبل الحداثة والنيوحديثة وما بعد الحداثة، وفي الوقت الذي تحثّ فيه العمارة الخطى في استهلاك الأنماط على وتيرة متسارعة، علينا أن نعيد بهدوء وتعقّل ودراية قراءة الدرس الذي قدّمته لنا هذه العمارات المبنيّة في تونس بين العامين ١٩٤٣ و١٩٥٥".

وتبقى تونس، أكثر من أيّ وقت مضى، مختبراً تجتمع فيه تشكيلات وابتكارات معمارية في تجدّد مستمرّ، ويمثّل تحت سقفه استكشاف التراث القديم والحديث مصدر إلهام لا يُستهان به.

بدأت عملية الاستعمار في هذه المنطقة من المغرب العربيّ في القرن التاسع عشر. فقد استغلّ الفرنسيّون، المتواجدون في السنغال، الصراعات القائمة بين مختلف الكيانات القبليّة المستقلّة نسبيًّا لإخضاعها لسلطتهم، وبالتالي تحقيق وحدة الإمبراطورية الفرنسيّة بين الجزائر وأفريقيا الغربيّة الفرنسيّة. في عشرينات القرن العشرين، تميّزت المنطقة ككيانٍ في إطار أفريقيا الغربيّة الفرنسيّة، وبقيت عاصمتها، لفترة طويلة، مدينة سانت لويس السنغاليّة. وباستثناء المدن التاريخية مثل "شنقيط"، وبعض المنشآت القائمة على مقربة من مناطق التنقيب المنجميّ، لم تشهد أيّة مدينة من المدن الكبرى أيّ نوع من التطوّر في مطلع القرن العشرين في هذه المنطقة من المغرب العربيّ.

في العام ١٩٦٠، نالت موريتانيا استقلالها. لكنّ هذه المنطقة الشاسعة المتميّزة بكثافة سكّانية منخفضة عرفت نموًّا مدينيًّا ضعيفًا حتّى بعد الاستقلال، على عكس البلدان المغاربيّة الأخرى. فكانت العاصمة نواكشوط تضمّ أقلّ من ٤٠٠٠٠٠ نسمة، فيما تسجّل اليوم أقلّ من ٨٠٠٠٠٠ نسمة، مقابل ١٠٠٠٠٠ نسمة لمدينة نواديبو، وهي المدينة الثانية الأكثر اكتظاظًا. وكانت العاصمة نواكشوط قد بُنيت في أواخر الخمسينات من الصفر. أمّا اختيار تلك الأرض لاستقبال الحكومة الموريتانيّة القائمة في سان لويس، فقد جرى عمدًا لأنّها لا تخضع لأيّ قبيلة فلا يمكن لأحد حينذاك أن يطالب بها. ثمّ ارتفعت فوقها المباني الإداريّة التابعة لمختلف الوزارات، فضلًا عن المطار. منذ ذلك الحين، نمت المدينة في إطارها الصحراويّ.

ويعدّ مستشفى كيهيدي الذي أقيم في العام ١٩٨٩ بالمنطقة المحاذية للحدود مع السنغال، من المشاريع المتميّزة والحديثة نسبيًا. ومثّل المشروع، الذي صمّمه الإيطالي فابريزيو كارولا، أهمّيّة خاصّة لتلك المنطقة النائية، وفرصة لتدعيم مجتمعها الريفي ومدّه بالسبل الآيلة إلى تطوير أساليب البناء المتماشية مع إمكانياته الاقتصاديّة الضعيفة. بُني المستشفى من حجارة طوب صنعت يدويًّا وخبزت في أفران بالموقع، كما امتدت أقسامه على شكل فروع نباتية مؤلّفة من كتلٍ كخلايا مسقوفة بالعقود وغرفٍ مُقبّبة. وتكرّس نجاح المشروع بحصوله في العام ١٩٩٥ على جائزة الآغا خان للعمارة.